الشـــــريف الرضى
وخصائص شعره
للأستاذ عبد الرحمن شكرى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

على أن الوجـدان يفيض فى شعر الشريف حتى من غير الاستعانة بهذه الصيغ البيانية . أنظر إلى وصفه حبيبته فى قوله :

تُحَبِّبُ أيامَ الحيـاةِ وإنها لَأعذبُ من طعم الخلود لطاعم

وتراه يستجمع أساليبه البيانية كلهـا فى قصائدِه الطويلة المشهورة كرثائه للصـابى وللصاحب فى قصيدتيه التى يقول فى مطلع واحدة :

أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد أرأيتَ كيف خباضياء النادى ؟

وفى مطلع الأخرى :

أكذا المنون تُقَطِّرُ الأبطالا
أكذا الزمان يضعضع الأجْبالاَ ؟

وهاتان القصيدتان من أفخم قصائده فى الرثاء وإن كان الحنين فيهما أقل منه فى قصائده فى رثاء أهل بيته . وله فى رثاء الصابى قصائد أقل فخامة وإن كانت أكثر حرقة . ومن أكثر قصائد الشريف فى الرثاء وجداناً قصيدته العينية المشهورة التى يقول فيها :

لله نفرة وجد لست أملكها إلاّ تذكرتُ إخوان الصفاء معى

وفيها يقول :

الآن نعلم أن العيش مُخْتَلَسٌ وأننا نقطع الأيام بالخدَعِ
أخىَّ لا رغبت عينى ولا أذنى
من بعد يومك فى مَرْأًى ومُستَمَعِ

وقصيدته التى يقول فى مطلعها :

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع
وغالط العيش لا صبر ولا جزع

وهى فى نظرى من أكثر قصائده فى الرثاء وجداناً . ومن قصائده الوجدانية فى الرثاء قصيدته فى آل المسيّب العينية التى يقول فيها :

وفارقنى مثل النعيم مفارقاً ووَدَّعَنى مثل الشباب مودِّعا

ومن قصائده الحبيبة فى الرثاء قصيدته فى رثاء أمه وهى أكثر وجداناً من قصيدة المتنبى فى رثاء جدته التى يقول فيها :

وإنْ لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أُمّا

وللمعرى قصيدته الطويلة الفخمة فى سقط الزند فى رثاء أمه التى يقول فيها :

مضتْ وقد كنتُ أظنُّ نفسى رضيع ما بلغتُ مدى الفِطام

ويقول :

سألتُ متى اللقاء فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام
فليتَ أذِنَّ يوم الحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمام

ولكن قصيدة الشريف أسهل وأسلس وأكثر وجداناً وهى التى مطلعها :

أبكيك لو نقع الغليل بكائى وأقول لو ذهب القال بدائى

وهى كلها ألصق بالموضوع من بعض أجزاء قصيدة المعرى.

ولابن نباتة السعدى قصيدة تستجاد فى رثاء أمه يقول فيها :

فَقدتُ كبيراً برّ أم حَفِيَّة كما فقد الثَّدْىَ المعلّلُ مُرضِعُ
تُبادرُ نحوى تبتغى أن تسرنى ولم تدرِ أنى بالسرور أُروَّعُ

إلى أن قال :

إلى أى تعليل وأى مَبَرَّةٍ وود نصيح بعد ودك أرجع

ولأمرٍ ما تذكرنى قصيدة الشريف بقصيدة كوبر الشاعر الإنجليزى فى رثاء أمه ؛ ولعل الذكرى لأثرها فى الوجدان فحسب لا لشبه كبير

وللشريف قصيدة فى التعزية تستحب للتلطف فى التعزية تلطفاً يجيده الشاعر الوجدانى وهى التى مطلعها : (لو رأيت الغرام يبلغ عذراً) .

وقصائد الشريف فى رثاء جده الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه مشهورة جيدة فخمة ، ولكنها فى نظرى من حيث هى شعر وجدانى أقل مما ذكرت من القصائد . وربما أكون مخطئاً ، وهى لا ينقصها التحرق والتأسف ولكن قيمة الشعر الوجدانى ليست بالتحرق والتلدد فحسب ، ولا بالفخامة ولا بدقة المنطق ولا بعكسه ، وقد يكون الشعر الوجدانى عكس المنطق إذا كان العكس يعبر عن صدق للعاطفة، فقول الشريف فى تشتت قومه وآله :

ما كان ضر الليالي لو نفسن بهم
على النوائب واستثنا هم القدر

ليس من منطق العقل ولا هو عكس المنطق الناشئ من مبالغات أهل الصنعة المزيفة بل هو منطق الوجدان الذي يعبر عن النفس؛ فإن كل نفس في الحياة تطلب أن تستثنى من آلام الحياة وصروفها ومنطق عقل صاحبها يعلم أن هذا طلب محال . فالشعر الوجداني توفيق ويصادف هوى النفس ومنطقها حتى لكأنه يخلق لها سمعاً يصغي إليه وقلباً يطرب له . وقد يكون البيت الواحد منه ألصق بالنفس وأثمن من قصيدة فخمة سواء أكانت من شعر التلدد، أو من الشعر التعليمي المحض المستقل عن العاطفة، أو من شعر الزخارف وألاعيب الذكاء في تبذله ولهوه. أنظر مثلاً إلى أبيات الشريف التي يذكر فيها كيف أنه يدافع الهموم بذكرى النعيم الزائل بينما غيره يدفعها بالخمر أو سماع الأغاني ولكنه يفيق من نشوة الذكرى كما يفيق غيره من نشوة الخمر؛ وهي الأبيات التي أولها :

إذا ضافني هم أملّ طروقه
ببعض الليالي أو أضيق به صبرا

إلى أن يقول بعد محوه من الذكرى :

فما كان إلا خلسة ثم إنني
رأيت يدي مما علقت به صفرا

وهي أبيات ليس فيها خيال غريب ولكن قيمتها في صدق وصف حالة للنفس ووسائلها في تعللها . وللشريف قصائد شهيرة في الإخوانيات قلما تتفق لشاعر آخر في صدق قولها وبساطتها وقربها من النفس وفي مظاهر الوجدان فيها مثل قصيدته في مودة الحب، وهو موضوع قلما يطرقه شعراء العربية عند وصف الحب في أشعارهم، أنظر إلى قوله فيها :

أينعت بيننا المودة حتى
جللتنا والدهر بالأوراق

أو قوله فيها :

في جبين الزمان منك ومني
غرة كوكبية الائتلاق

ومن قصائده المشهورة قصيدته التي يقول فيها لصديقه :

كأنك قدمة الأمل المرجى
عليّ وطلعة الفرج القريب

والقصيدة التي يقول فيها :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه
أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

وهي من قصائده التي ترد كثيراً في كتب المختارات، وحق لها أن تختار . والشريف إذا جوفي عبر عن شعوره بقوله :

ويظهر لي قوم بعادا وجفوة
وما علموا أني بذلك أفرح

من برجي العاجي

أمس خرجت من برجي العاجي إلى البرج الدائر . والبرج الدائر هو مرصد حلوان . دعاني إلى زيارته مديره الأستاذ مدور . وهيأ لي المنظار الكبير مسدداً إلى القمر . فذهبت يدفعني الشوق إلى استجلاء سر هذا الكوكب الجميل، الذي نظم فيه شعراء الأرض نصف شعرهم، ودان له عشاق الأرض بنصف هنائهم . ورفعت عيني إلى تلك العين الذهبية التي طالما رعت بنورها نصف حياتنا، وسهرت على مسراتنا، وسكنت من أحزاننا . نظرت، وإذا أنا أتراجع أسفاً وألما . لا أحب أن أصف ما رأيت . ولكني أحب أن أسجد لله شكراً إذ جعل لنا عيوناً لا تبصر إلا بمقدار . إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو من صنع عيوننا القاصرة . والويل لنا إذا أبصرت أعيننا الآدمية أكثر مما ينبغي لها أن تبصر

ذلك شأن القمر باعث الجمال على الأرض . وكذلك شأن الشمس باعثة الحياة على الأرض . إنها تشرف علينا من مكان معين بمقدار . فإذا اقتربت منا أعلة هلكنا حرقاً، وإذا ابتعدت عنا أعلة متنا برداً . إن يد الحكمة الأزلية قد وضعتها في الموضع الذي لا بد لها فيه من أن ترسل إلينا الدفء والخير والسلام

ما أدق هندسة الكون ! اللهم إني أعود إلى برجي وأنا شديد الإيمان بك، قريب الفهم لك، مدرك بعض الإدراك لمشيئتك في خلق الإنسان، مطمئن كل الاطمئنان إلى مراميك في إنشاء حواسنا الآدمية على هذا الضعف . إن ما اعتدنا أن نسميه ضعفاً وقصوراً في إدراكنا حقيقة الأشياء ليس إلا السياج الذي يحمي سعادتنا البشرية . فإذا خرجنا عن نطاق هذا السياج فقد انقلبنا مخلوقات أخرى لا تتصل بالأرض ولا بجمالها ولا عواطفها . مخلوقات ليست آدمية، فقد ترى غير ما يرى الآدميون . وقد ترى أبعد مما يرون . ولكنها لن تكون من أجل ذلك أسعد ولا أسمى ولا أنبل .

اللهم إنك مع قصورنا قد صنعتنا على خير حال، ومع جهلنا قد هيأت لنا أحسن مآل .

توفيق الحكيم

فيكون هو المعزز المكرم بقوله هذا . وانظر إلى الوجدان في قوله :

تُحَبِّبُ أيام الحياة وإنها لأعذب من طعم الخلود لطاعم

وهو لا يفحش في هجائه كما يفعل الشعراء ولكنه مع ذلك يدمغ خصومه ، أنظر إلى قوله :

من كل وجه نقاب العار نقبته كالعر مر عليه القار والقطر

يَصْدَى من اللؤم حتى لو تعاوده أيدي القيون زماناً لا تجلى الأثر

وهي مبالغة ضرورية لأنها نكتة يرادبها السخر. وانظر إلى قوله:

تمسكوا بوصايا اللؤم تحسبهم تتلى عليهم بها الآيات والسور

وقوله :

لو عِيْدَ من داء الفهاهة واحد عادوه من عى إذا حضر الندى

وأشعاره في الشيب كأشعار أخيه المرتضى مشهورة ، وقد عنى بشعرها في الشيب صاحب كتاب (الشهاب في الشيب والشباب) وهو باب من الشعر الوجداني أيضاً . وهذه النظرة في ديوان الشريف تثبت ما قدمناه في أول المقال من أنه أكثر نصيباً من شعر الوجدان ولكن ليس له في وصف الطبيعة كقصيدة أبي تمام التي أولها (رقت حواشي الدهر فهي تمرمر) أو كقصيدة البحتري التي يقول فيها (وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكا) أو (شقائق يحملن الندى فكأنه) أو وصف بركة المتوكل أو وصفه آثار الفرس وغيرها من شعر الوصف التصويري . وليس له كوصف ابن الرومي غروب الشمس في قوله (وقد رنقت شمس الأصيل الخ) ولم يسر شعره في الأمثال كما سار بعض شعر المتنبي، ولم يولع بالبحث في الحياة والكون كما يفعل المعري ، ولكنه مع ذلك قد أمن زلل المبالغات والتشبيهات البعيدة المرفوضة ، وأمن الفتور وأمن المعاظلة والتواء القول وأمن الألاعيب اللفظية. وشعر الوجدان ليس بأقل منزلة ولا أقل أثراً في النفس من أبواب القول الأخرى التي بزه فيها منافسوه، فهو إذاً أقل منهم منزلة وله مع ذلك نظرات صائبة تدل على عقل وذكاء وذوق في اختيار ما يقول ورفض ما لا يجمل به أن يقول. أنظر إلى قوله في وصف لذة القسوة المركبة في بعض الطبائع :

يهش للمرء تغريه أظافره كما تهش سباع الطير للجيف

إذا نجا من يديه غير منفقر أفنى أنامله عضاً من الأسف

وقوله :

يصل الدليل إلى العزيز بكيده والشمس تُظلِمُ من دخان الموقد

وقوله في أثر الأفذاذ في حياة الناس وتاريخهم :

ولولا نفوس في الأقل عزيزة لَتَخطى جميع العالمين خمول

وقوله :

رب نعيم زال ريعانه بلسعة من عقرب الحاسد

وقوله :

كفى بقوم مجاء أن مادحهم يهدي الثناء إلى أعراضهم فَرَقاً

وكل هذه نظرات صائبة في النفس ، وله أشياء كثيرة من أمثالها ، ولا غرابة أن تكون للشاعر الوجداني نظرات صائبة في النفوس . وله أيضاً وصف بديع كما قال في وصف الفرس :

إذا تَوَجَّسَ كان القلبُ ناظرَهُ والقلب ينظر ما لا ينظر البصر

وقال في وصف تردد الجيل في النعيم وتشبيهه بتردد القُرْط الجيل في اهتزازه على جانب الوجه الجميل بعد تشبيه تردد الحبيب في النعيم بتردد النسيم ولعبه بالأغصان :

يتأى ويدنو على خضراء مورقة لعب النُّعامَى بأوراق وأغصان[1]

كالقُرْطِ عُلِّقَ في ذِفْرَى مُبَتَّلَةٍ بين العقائل قُرْطَاهَا قليقان

وهذا الوصف إذا تُؤُمِّل وجد وصفاً مطرباً[2]

عبد الرحمن شكري

(١) النعامى بالياء ريح بليلة

(٢) ضاق المقال عن الكلام في النغمة الموسيقية في شعر الشريف وسنتكلم عنها في مقال عن تلميذه مهيار الديلمي ونشير إلى مقدرتهما في الوصف

تنبيه : في المقال السابق حرّف بيت للشريف وصحته : (فانك أحلى في جفوني من الكرى) ونتأمل بفتح الميم المشددة الثانية لا بكسرها